

## الحديث الثامن عشر

### حجبت النار بالشهوات

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال :  
«حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ ، وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ» مَثَّقٌ عَلَيْهِ<sup>(١)</sup> . وفي رواية مسلم : «حُفَّتِ النَّارُ . . . » بدل : (حُجِبَتِ) .

وقد رواه عن النَّبِيِّ ﷺ أبو هريرة ، رضي الله عنه ، كما ذكرنا ، وأنس - رضي الله عنه - أيضاً ، ورؤي موقوفاً على ابن مسعود ، رضي الله عنه .

وأخرجه أصحاب المُدَوَّنَاتِ ، نذكر منهم : البخاري ، ومسلماً ، وأحمد في المسند ، وفي كتاب الزُّهد ، والتُّرمذِيُّ ، والدَّارِمِيُّ ، وأبا يعلى ، وعبد بن حميد ، كما ذكر ذلك الشُّيْطِيُّ في الجامع الصَّغِيرِ ، والجامع الكبير<sup>(٢)</sup> .

أودُّ أن أقف وقفةً سريعةً مع المفردات ، والصُّوَرِ الوارِدة في هذا الحديث الموجز الجميل قبل أن أبدأ بتأمل معانيه ، ودراسته دراسةً مُتَأَنِّيةً .

للحديث - كما سبق أن ذكرنا - روايتان : إحداهما : (حُجِبَتِ) والأخرى : (حُفَّتِ) وهما بمعنًى متقارِبٍ ، وكلُّ منهما صورةٌ بيانيَّةٌ معبِّرةٌ جميلةٌ .

(١) البخاريُّ برقم ٦٤٨٦ ، ومسلمٌ برقم ٢٨٢٢ .

(٢) انظر «الجامع الكبير» ٥٠٢/١ ، والجامع الصَّغِيرِ ، وانظر المسند ٢٢٢/٢ و٢٧٣ و١٥٣/٣ و٢٥٤ والدَّارِمِيُّ ٣٣٩/٢ ، والتُّرمذِيُّ برقم ٢٥٥٩ ، ومسند أبي يعلى ٦/٣٢٧٥ ، وشرح السُّنَّةِ ٤١١٤ ، وفيض القدير للمناوي ٣/٣٧٣ و٣٨٩ .

حُجِبَتْ: سُتِرَتْ. وَحُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ ؛ أَي: جُعِلَتِ الشَّهَوَاتُ حِجَاباً بَيْنَ الشَّخْصِ ، وَبَيْنَ النَّارِ. وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ ؛ أَي: حُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُكَلَّفُ مِنْ مَجَاهِدَةِ النَّفْسِ فِعْلاً لِلوَاجِبَاتِ ، وَالمَنْدُوبَاتِ ، وَتَرْكاً لِلْمُحَرَّمَاتِ ، وَالمَكْرُوهَاتِ ، كَالِإِتْيَانِ بِالعِبَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا ، وَالمَحَافِظَةِ عَلَيْهَا ، وَأَدَاءِ السُّنَنِ الرَّاتِبَةِ ، وَغَيْرِهَا ، وَكَتَجَنُّبِ المَنْهِيِّ عَنْهُ قَوْلًا ، وَفِعْلاً.

وهكذا فَالْجَنَّةُ ، وَالنَّارُ - كَمَا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ الصُّورَةُ البَيَانِيَّةُ - مَحْجُوبَتَانِ ، فَمَنْ هَتَكَ الحِجَابَ اقْتَحَمَهَا وَدَخَلَهَا<sup>(١)</sup> ، وَمَنْ تَعَاطَى الشُّبُهَاتِ المُحَرَّمَةَ وَصَلَ إِلَى النَّارِ ، وَمَنْ قَامَ بِأَدَاءِ الوَاجِبَاتِ وَامْتَنَعَ عَنِ المُحَرَّمَاتِ ، وَعَانَى فِي تَحْقِيقِ ذَلِكَ مَا عَانَى مِنَ المَشَقَّاتِ المَعْبَرِ عَنْهَا بِالمَكَارِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ.

حُفَّتْ: قَالَ القُرْطُبِيُّ<sup>(٢)</sup>: [أَصْلُ الحِفِّ الدَّائِرُ بِالشَّيْءِ المُحِيطِ بِهِ ، الَّذِي لَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُتَخَطَّى غَيْرُهُ. فَمَثَلُ المُصْطَفَى ﷺ المَكَارِهِ ، وَالشَّهَوَاتِ بِذَلِكَ.

فَالْجَنَّةُ لَا تُنَالُ إِلَّا بِقَطْعِ مَفَاوِزِ المَكَارِهِ ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا. وَالنَّارُ لَا يُنْجَى مِنْهَا إِلَّا بِفُطْمِ النَّفْسِ عَنِ مَطْلُوبَاتِهَا الَّتِي حَرَّمَهَا الشَّرْعُ ، أَوْ كَرِهَهَا].

إِذَا فَقَدَ جَعَلَتِ الشَّهَوَاتُ مُحَدِّقَةً بِالنَّارِ ، مَطِيفَةً بِأَحْفَتِهَا ، لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقَعَ فِي الشَّهَوَاتِ ، ثُمَّ يَنْجُو مِنْ وَلُوجِ النَّارِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، أَوْ أَنْ يَتُوبَ تَوْبَةً نَصُوحًا.

وَكَذَلِكَ فَقَدَ جُعِلَتِ المَكَارِهِ مِنَ الوَاجِبَاتِ ، وَالمَنْدُوبَاتِ مُحِيطَةً بِالْجَنَّةِ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهَا ، وَنَوَاحِيهَا ، فَلَا يَسْتَطِيعُ امْرُؤٌ أَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا بِتَخَطُّيْهَا ، وَاحْتِمَالِ تِلْكَ المَكَارِهِ مِنَ الجُّهُدِ فِي الطَّاعَةِ وَالصَّبْرِ عَنِ الشَّهْوَةِ.

المَكَارِهِ: قَالَ المَنَاوِيُّ: [المَكَارِهِ: جَمْعُ مَكْرَهَةٍ ، وَهِيَ مَا يَكْرَهُهُ المَرْءُ ،

(١) فيض القدير للمناوي ٣/٣٧٣.

(٢) فيض القدير للمناوي ٣/٣٨٩.

ويشقُّ عليه من القيام بحقوق العبادة على وجهها ، كإسباغ الطُّهر في الشِّتاء وتجرُّع الصَّبْر على المصائب] (١) .

وقال أيضاً: [وأطلق عليها المكاره؛ لمشقَّتْها؛ وصعوبتها على العامل] (٢) .

وجاء في «تاج العروس»: [ومكاره الدَّهر هي نوازله ، وشدائده ؛ جمع مكروه . . وفي الحديث: إسباغ الوضوء على المكاره ، وهو جمع مكره لما يكرهه الإنسان ، ويشقُّ عليه] (٣) .

وهي هنا ما أمر به المكلف من مجاهدة النَّفس فعلاً ، وتركاً ، كالإتيان بالعبادات ، والمحافظة عليها ، واجتناب المنهيات قولاً ، وفعلاً ، والصَّبْر على المصائب بأنواعها ، فكُلِّمًا صبر على واحدةٍ قطع حجاباً من حجب الجنَّة ، وكُلِّمًا أدَّى واجباً يشقُّ على النَّفس أداؤه ؛ قطع حجاباً آخر من حُجب الجنَّة . . . ولا يزال يقطع حُجبها حتَّى لا يبقى بينه وبينها إلا مفارقة روحه بدنه ، فيقال: ﴿يَتَأَيَّبُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠] .

الشَّهوات: جمع شهوة ، وهي حركة النَّفس ؛ طلباً لما يلائمها ، أو يلدُّ لها ، ويراد بها هنا: [ما يُسْتَلَدُّ من أمور الدُّنيا ممَّا منع منه الشَّرْع أصالةً ، أو لاستلزامه ترك مأمورٍ ، وألحقت بها الشُّبهات ، والإكثارُ من المباحات خوف الوقوع في محرَّم] (٢) .

هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ وبديع بلاغته في ذمِّ الشَّهوات ؛ وإن مالت إليها النَّفوس ، والحثُّ على الطَّاعات ؛ وإن كرهتها ، وشقَّتْ عليها (٤) .

الإسلام رسالةٌ عظيمةٌ ، فيها الالتزام بالخلق الإسلاميِّ الرِّكِّيِّ ، والدَّعوة إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأفعال ، والبُعد عن الشرِّ ، والإتيان بالخير

(١) فيض القدير للمناوي ٣/ ٣٨٩ .

(٢) فيض القدير للمناوي ٣/ ٣٧٣ .

(٣) مادَّة: كره .

(٤) هذا من كلام ابن حجر نقله المناوي ٣/ ٣٨٩ .

والمعروف ، وبذل المال ، وعون الضَّعيف ، والجهد بالنَّفْس ، والمال ،  
وصلة الأرحام ، وعبادة الله ، والبُعد عن المحارم .

إنَّ الإسلام سموٌّ إلى المستوى الأفضل ، وترقُّع عن الدُّنيا .

وإذا كان ذلك كذلك ؛ فالأخذ بتعاليمه ليس أمراً سهلاً ، ولا هيئناً .

إنَّ هذه الرِّسالة العظيمة لا تطيقها النفوس الشَّريرة الصَّغيرة ، التي تضعف  
أمام المُغريات ، والمخاوف ، فتقع في عددٍ من المُخالفات التي تنتهي  
بأصحابها إلى النَّار ، والعياذ بالله .

إنَّ الارتفاع في كلِّ أمرٍ صعبٍ يحتاج إلى قوَّة ، وإرادة ، وتصميمٍ . . أمَّا  
الانحدار ؛ فأمره يسيرٌ هيئناً . إنَّ الارتفاع إلى قمَّة الجبل صعبٌ ، لا يقوى عليه  
الضعفاء ، والمرضى ، أمَّا التُّزول إلى السَّفح ، والوادي ، فأمرٌ سهلٌ لا يحتاج  
إلى جهدٍ كبيرٍ . ولكنَّ الإنسان الذي يعلم : أنَّ في قمَّة الجبل ما يتمنَّاه من العيش  
الرَّغيد ، والمأوى المريح ، والمسكن المنيع ، والمنظر الجميل ، يهونُ عليه  
ما يلاقه في صعوده ؛ لما يتوقَّع من الأمن ، والرَّاحة ، والمُتعة ، والسَّعادة .

وأخبار التَّاريخ ، وأحداث الواقع تشهد على صدق هذه الحقيقة بالنِّسبة إلى  
الأفراد ، والشُّعوب ، فالأُمَّة التي تريد أن ترقى إلى المجد لا تبلغ ذلك إلا  
بالجدِّ الدَّؤوب ، والعمل الصَّادق ، والبذل ، والفداء ، وكذلك الفرد . قال  
أبو تَمَّام :

لَا تَحْسِبِ الْمَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ      لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرَ<sup>(١)</sup>

وقال أبو تمام أيضاً :

بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا      تُنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرِ مِنَ التَّعَبِ<sup>(٢)</sup>

أمَّا الأُمَّة التي تضعف عن الجدِّ ، والعمل ، والبذل ، وتخلدُ إلى الشَّهوات  
والمُلذَّات ؛ فسرعان ما تهوي إلى حضيض الحُمول ، والذُّلِّ .

(١) ديوان أبي تَمَّام ٤٢/٣ .

(٢) ديوان أبي تَمَّام ٧٣/١ .

ومن هنا كانت كلُّ دعوةٍ تريد لنفسها التَّمكين في الأرض ، والسِّيادة في الدُّنيا تُلْزِم أتباعها بقيودٍ ، وتفرض عليهم لوناَ خاصاً من الحياة الجادّة ، وتندبهم إلى الجهاد ، والفداء ، وتحملهم على أن يتركوا كثيراً من المِلدّات ، والشّهواتِ المحرّمات ، أو المباحات التي يضرُّ تعاطيها الأُمَّة ؛ كالرُّكونِ إلى الرّاحة ، والعودة عن القتال يوم التّفير وما إلى ذلك . . . وقد تطلب منهم أن يقدّموا أرواحهم ، وأن ينزلوا عن شيءٍ من أموالهم ، واستقرارهم .

وهذا امتحانٌ لإيمان المؤمن ، وابتلاءٌ له ، ليتبيّن صدقه في دعواه ، أو كذبه فيها . هل يستطيع أن يتغلّب على سلطان تلك المُغريات ، والمخاوف؟ ويمضي في تحمّل عناء التّكاليف ، وأدائها؟ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصّٰدِقِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ [محمد: ٣١] .

وهل يقوى على أن يبقى محافظاً على المُستوى الكريم ؛ الذي يريده الإسلام له؟

إنَّ الاستقامة على طريق الحقِّ ، والاستمرار في سلوكه أصعبُ من الإتيان به مرّةً أو مرّتين ، من أجل ذلك أراد الله لأنبيائه ، وأوليائه أن يكون طريقهم طريق الجهاد ، وبذل الأموال ، والأنفس . قال الإمام أبو حامد الغزاليُّ:

[بيّن بهذا الحديث: أنَّ طريق الجنّة وعزٌّ ، وسبيلٌ صعبٌ ، كثيرُ العقبات ، شديدُ المشقّات ، بعيدُ المسافات ، عظيمُ الآفات ، كثيرُ العوائق والموانع ، خفيُّ المهالك والقواطع ، غزيرُ الأعداء والقطّاع ، عزيزُ الأتباع والأشياء] (١) قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ إِنْ نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤] .

وورد في معنى الحديث الذي ندرسه حديثٌ صحيحٌ آخر (٢) أخرجه

(١) نقل ذلك المناوئي في «فيض القدير» ٣/٣٨٩ .

(٢) الترمذيّ برقم ٢٥٦٠ ، وأبو داود برقم ٤٧٤٤ ، والنسائي ٣/٧ ، والحاكم ١/٢٧ ، وانظر صحيح النسائي للالباني برقم ٣٥٢٣ ، وصحيح الترمذيّ للالباني برقم ٢٠٧٥ .

التَّرمِذِيُّ ، وأبو داود ، والنَّسَائِيُّ ، والحاكم عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ ، قال : «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ ؛ أَرْسَلَ جَبْرِئِلَ إِلَى الْجَنَّةِ فَقَالَ : انظُرْ إِلَيْهَا ، وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا . قَالَ : فَجَاءَهَا ، فَنظَرَ إِلَيْهَا ، وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، قَالَ : فَرَجَعَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ :

- فوعزتك لا يسمع بها أحدٌ إلا دخلها .

فأمر بها ، فحفَّت بالمكارة . فقال : ارجع إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها . قال : فرجع إليها ، فإذا هي قد حُفَّت بالمكارة . فرجع إليه ، فقال :

- وعزتك لقد خفتُ ألا يدخلها أحدٌ .

قال : اذهب إلى النَّارِ فانظر إليها ، وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فإذا هي يركبُ بعضها بعضاً ، فرجع إليه ، فقال :

- وعزتك لا يسمع بها أحدٌ ، فيدخلها .

فأمر بها فحفَّت بالشَّهوات ، فقال : ارجع إليها . فرجع إليها ، فقال :

- وعزتك لقد خشيتُ ألا ينجو منها أحدٌ إلا دخلها» .

لقد وقف الإسلام من الشَّهوات الإنسانيَّة الموقف الوسط الرَّائع :  
لم يُصادمها ، ولم يتجاهلها ، ولم يُطلقها ، ولم يُبيح للمسلمين أن يُسرفوا في تعاطيها ، والانغماس فيها دون قيد ، ولا حدٌ .

فعندما حرَّم على أتباعه بعض المحرَّمات ممَّا يندرج في باب الشَّهوة ، عوَّضهم بما يماثلها من المُباحات ، والمستحبَّات . فقد حرَّم عليهم الزُّنى ، وأحلَّ لهم الزَّواج ، ودعاهم إليه ، وحرَّم عليهم أكل الرِّبا ، وأكل مال اليتيم ، والسَّرقة ، والرَّشوة ، وأحلَّ لهم الكسب المشروع من تجارة ، وصناعة ، وزراعة . . . وحرَّم عليهم لحم الخنزير ، وأحلَّ لهم لحوم الأنعام ، وحرَّم عليهم الخمر ، وأحلَّ لهم أنواع الشُّراب . . . وبالجملة فقد حرَّم عليهم الخبائث ، وأحلَّ لهم الطَّيبات .

إنَّ الإسلام لا يقهر النَّفس حرماناً لها من الطَّيبات ، بل يحظرُ الأمور ؛ الَّتِي

تعود على الفرد والأمة ، بالشَّرُّ المُستطير ، والضَّرر الظَّاهر والخفيِّ . والإسلام يعترف بالغرائر ، والميول الطَّبيعيَّة ، ويوظِّفها في دائرة المصلحة ، وعمران الأرض . يقول الله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَآئِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

وشرع تشريعاتٍ تُصَرِّفُ تلك الشَّهوات في السَّبيل المفيد وتُصعِّدها ، وسنَّ من الأحكام ما ينظِّمها على وجهٍ يستوفي الإنسان حاجته من تلك الشَّهوات مع تسخيرها لخدمة الهدف السَّامي من الحياة ، وهو عبادةُ الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وهذه الأحكام تجعل تلك الشَّهوات معينةً على استقامة الحياة النَّظيفة السَّليمة ، وتجنَّب المجتمع الويلات ، والأمراض ، والمخاطر ؛ التي يمكن أن تحصل من وراء التَّنَافس عليها .

وَأَوْضَحَ فِي الْوَقْتِ ذَاتَهُ : أَنَّ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ كُلَّهَا مِنَ الْمَتَعِ الزَّائِلَةِ ، وَأَنَّ مِنَ ظَلَمِ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ أَنْ يَقْضِرَ هَمَّهُ عَلَيْهَا ، وَأَنْ يُسْرِفَ فِيهَا . فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ بَعْدَ أَنْ عَدَّدَ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ، وَالْأَوْلَادِ ، وَالْأَمْوَالِ ، وَالْمَرَآكِبِ ، وَالْأَرْضِي ، وَالْعَقَارَاتِ ؛ قَالَ : ﴿ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِمَنْ لَدَيْنَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ١٥] .

لقد أعطاهما قيمتها الحقيقيَّة . . . وقَرَّرَ : أَنَّ الْجَنَّةَ خَيْرٌ مِنْهَا . . . الْجَنَّةُ الَّتِي تَحِيطُ بِهَا الْمَكَارِهِ خَيْرٌ مِنْ تِلْكَ الْمَلَذَّاتِ ، وَالشَّهَوَاتِ .

وفي الْجَنَّةِ الْخُلُودُ وَالْأَزْوَاجُ الْمُطَهَّرَةُ ، وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ رِضْوَانُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى . إِنَّ تَقْرِيرَ هَذَا يَجْعَلُ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ إِذَا وَقَعَ فِي صِرَاعٍ بَيْنَ مَا يَدْعُوهُ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا يَدْعُوهُ إِلَى الْاسْتِجَابَةِ لِلشَّهْوَةِ ؛ يَجْعَلُهُ لَا يَتَرَدَّدُ فِي إِثَارِ الْجَنَّةِ .

الْجَنَّةُ الَّتِي هِيَ هَدَفُ كُلِّ مُسْلِمٍ . . . الْجَنَّةُ الَّتِي هِيَ سِلْعَةُ اللَّهِ الْغَالِيَةِ . . . لَا بُدَّ لِمَنْ أَرَادَهَا أَنْ يَسْعَى لَهَا سَعِيًّا حَثِيثًا ، وَيُقَدِّمَ لَهَا النَّفْسَ ، وَالنَّفْسَ . . . وَقَدْ قِيلَ :

... وَمَنْ يَخْطُبِ الْحَسَنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ الْمَهْرُ<sup>(١)</sup>

وليس كثيراً أن يتحمّل المسلم المكاره مهما عظمت في سبيل الوصول إلى الجنة ، والتمتع بذاك النعيم المقيم فيها . . . ؛ لأنّ دخولها هو الفوز الحقيقي كما قال سبحانه : ﴿ فَمَنْ رُحِّحَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

قال كلثوم بن عمرو العتابي :

وَلِلَّهِ فِي عَرْضِ السَّمَوَاتِ جَنَّةٌ وَلَكِنَّهَا مَخْضُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ<sup>(٢)</sup>

[الجنة تلك الأمتية الغالية ؛ التي يسعى لها الساعون من المؤمنين على مرّ العصور . . . الجنة التي كانت في قلوب السلف الصالح ، وأعصابهم شغلة تحركهم لضرب أعلى أمثلة البطولة في الجهاد . الجنة تلك الغاية الكريمة ؛ التي ترنو إليها العيون الحالمة ، وتهفو إليها الأرواح المشوقة في كلّ زمان ، ومكان . . . يستعذبون العذاب من أجل الحصول عليها .

إنّها أعظم مرغوب عند المؤمن ، ودخولها والانتهاه إليها أملٌ يترأى له في رحلة العمر ؛ التي تستغرق حياته كلها .

وما أكثر ما كانت الجنة حافزاً إلى الخير ، والحق ، مهما كان في الطريق إليها من المخاطر ، والعقبات ، والأشواك ، بل لو كان فيها الموت المحقق . كان هذا في أيام النبي ﷺ ، كما أخبر أنس - رضي الله عنه - قال :

انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتّى سبقوا المشركين إلى بدر ، وجاء المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يقدمنّ أحدٌ منكم إلى شيء حتّى أكون أنا دونه » .

فدنا المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى جنة عرضها السموات ، والأرض » .

(١) ديوان أبي فراس الحمداني (١٦٥) طبعة دار الكتاب العربي - بيروت .

(٢) نهاية الأرب ٨٦/٣ .

قال عُمَيْرُ بن الحُمَامِ الأنصاريُّ: يا رسول الله! جَنَّةُ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتُ ،  
والأَرْضُ؟

قال ﷺ: «نعم». قال عُمَيْرٌ: بخ ، بخ!

فقال رسول الله: «ما يحملك على قولك: بخ بخ؟!». .

قال: لا والله يا رسول الله! إلا رجاء أن أكون من أهلها.

قال ﷺ: «فإنك من أهلها» .

فأخرج تمراتٍ من قرنه (وهو جعبة النَّشَاب) فجعل يأكل منهنَّ ، ثمَّ قال:  
لئن أنا حييتُ حتَّى آكل تمراتي هذه ، إنَّها لحياةٌ طويلةٌ . فرمى بما كان معه من  
التَّمْرِ ، ثمَّ قاتلهم حتَّى قُتِلَ<sup>(١)</sup> .

وكان مثلُ هذا الموقف أيضاً في الأيامِ من بعده ، فلقد قال أبو موسى  
الأشعريُّ وهو بحضرة العدوِّ: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أبواب الجنة تحت  
ظلال السُّيُوف» .

فقام رجلٌ رثُ الهيئة ، فقال: يا أبا موسى! أنت سمعت رسول الله ﷺ  
يقول هذا؟ قال: نعم . فرجع إلى أصحابه ، فقال: اقرأ عليكم السَّلَام ، ثمَّ كسر  
جَفْنَ سيفه ، فألقاه ، ثمَّ مشى بسيفه إلى العدوِّ ، فضرب به حتَّى قُتِلَ<sup>(٢)</sup> [انظر  
صحيح مسلم ٤٥/٦ برقم ١٩٠٢] .

ووجدانُ المُسلم الحيِّ عندما يتصوَّر هول النَّار ، وفظاعتها ، وما يلقاه فيها  
داخلها تصغر في عينه اللَّذائذ ، والشَّهوات . يقول الإمام الغزاليُّ:

[دارٌ ضيقةُ الأرجاء ، مظلمةُ المسالك ، مبهمةُ المهالك ، يخلد فيها  
الأسير ، ويوقد فيها السَّعير ، شرايبهم فيها الحميم ، ومستقرُّهم الجحيم ،  
الرَّبانيةُ تجمَعهم ، والهاويةُ تجمَعهم ، أمانهم فيها الهلاكُ ، وما لهم منها

(١) انظر صحيح مسلم برقم ١٩٠١ وفي طبعة إستانبول ٤٤/٦ .

(٢) انظر التَّصوير الفَنِّي في الحديث النَّبويِّ ص ٥٢ .

فكأكَ ، قد سُدَّتْ أقدامهم إلى النَّوَصي ، واسودَّتْ وجوههم من ظلمة المعاصي ، يُتَادُونَ من أكنافها ، ويصيحون في نواحيها وأطرافها: يا مالك! قد حقَّ علينا الوعيد ، يا مالك! قد أثقلنا الحديد ، . . . بل يكبُّون على وجوههم مغلولين ، النَّارِ مِنْ فوقهم ، والنَّارِ مِنْ تحتهم ، والنَّارِ عن أيمنهم ، والنَّارِ عن شمائلهم ، فهم غرقى في النَّارِ ، طعامهم نَارٌ ، وشرابهم نَارٌ ، ولباسهم نَارٌ ، ومهادهم نَارٌ<sup>(١)</sup> .

والحديث كلُّه صورةٌ بيانيَّةٌ موقَّعةٌ ، تُبيِّنُ طريق الجنَّةِ ، وطريق النَّارِ ، وفي ذلك تحذيرٌ ، وأبَّيُّ تحذيرٍ ، فبعد المكاره ، والعقبات جنَّاتٌ تجري مِنْ تحتها الأنهار .

وبعد الشَّهوات والملذَّات نَارٌ حامية .

والحديث يدلُّ على خاصَّةٍ تميِّز بها الحديث النَّبويُّ ، وهي خاصَّةُ الموسيقى العذبة الجميلة ، فإذا رَدَّدت هذا الحديث ؛ أحسَّست بروعة الإيقاع ، وتذوَّق تلك الحلاوة ؛ التي تحسُّ بها مِنْ ذاك التَّرديد .

\* \* \*

---

(١) الإحياء ٤/٥١٤ .